

(خلص)

شواهد القبور في المغرب والأندلس واجبة للتزيين وحفظ الذاكرة

مثلت شواهد القبور، في المغرب والأندلس، واجبة لتخليد الراحلين وعكس مستواهم الاجتماعي، مع إضفاء ورونق للتخفيف من آلام الزائرين، كما تعكس كذلك نظرة المسلمين للموت والآخرة.

محمد حقي*

أقوى منهم. لذلك، انتشرت عادة اتخاذها في كل العالم الإسلامي. اهتم الأندلسيون بوضع الشواهد على قبورهم منذ فترة مبكرة وأعني بذلك القرن 3هـ/9م، كما توضح إشارات ابن الفريسي الغنية والكثيرة. وانطلاقاً من منتصف القرن 4هـ/10م، صار الأشخاص يعدون شواهد

تحمّل من معطيات للباحث في التاريخ وللمجتمع وحضارته؟

أكثر من شهادة

تتكون الشهادة من لوح من الحجر أو الخزف أو أي مادة يوضع على القبر من أجل التعريف بصاحبه، وحفظ اسمه، ومنع اختلاطه بغيره

تغيرت النظرة إلى الحدث التاريخي خلال القرن العشرين، حيث لم يعد الحديث عن حدث تاريخي جاهز ومحدد، بل فقط الماجري. فالمرّخ، بناء على تصوره وإشكاليته، هو الذي يكتشف الحدث المناسب إن لم يكن من يخترعه. لذلك، تحولت وقائع كانت تعتبر تافهة ومهملة في السابق إلى أحداث خطيرة ورئيسة. وتبعاً لهذا التصور، تغيرت نوعية المصادر الممكن استغلالها في البحث التاريخي، فلم تعد الوثيقة الرسمية ولا كتب الحوليات هي المصادر الوحيدة، بل إن كل ما خلفه الإنسان، مكتوباً أو منقوشاً أو مبنيًا أو مستعملًا أو محفوظاً في الذاكرة خلال فترة محددة، صار مصدراً يمكن الاستناد إليه واعتماده في التأريخ متى توفر المنهج الصارم والدقيق. في إطار هذه الرؤية الجديدة للمصدر التاريخي، يندرج اهتمامنا بالشهادة. فما هي خصائصها؟ وما هو حجم الإرث المغربي-الأندلسي منها؟ وماذا

اهتم الأندلسيون بوضع الشواهد على

قبورهم منذ فترة مبكرة

قبورهم في حياتهم أو ما يكتب عليها ثم يوصون بوضعها على القبر. وأقدم شهادة حصلنا عليها تتعلق بالزاهد أبي وهب العباسي الهاشمي، حيث ترك حجراً كتب عليه أبياتاً وأوصى بوضعه على قبره. •••

من القبور. وبالرغم من معارضة العلماء لكل أشكال البناء والزخرفة على القبور، فإنهم تسامحوا في اتخاذ الشهادة بناءً على تأويل أثر في السنة اتخذوه دليلاً، وهم في الحقيقة إنما يستجيبون ويسايرون تياراً اجتماعياً



استعملت مواد فاخرة، خاصة الرخام، في بناء القبور.

الكتابة وسط اللوحة، ويحيط بها إطار يحدد مجال الكتابة على الجوانب الأربعة أو فقط ثلاثة منها.

ثانياً، الشاهدة الأسطوانية، وهي شكل يكاد يقتصر على طليطلة وضواحيها، وقد ظهرت في نهاية القرن 4هـ/10م، ثم توسعت في القرن الموالي، وتوضع الكتابة في شكل مستطيل في الجزء العلوي، وهي مصنوعة من الرخام أو الحجر الرملي. ثالثاً، شاهدة ألبية أو الشاهدة المرابطية «وتمثل أشكال محاريب عقودها متجاوزة منكسرة، تحملها عمد على مناكب ويدور بالعقود طرر مستطيلة الشكل تعلوها أفاريز، وتحف بهذه الأفاريز والطرر نقوش كتابية، وتغطي المحاريب المنقوشة كتابات جنازية».

جمع الشواهد، ونجحوا في خلق تراكم كبير اتخذ أحياناً شكل موسوعات كبيرة، ومنهم إيفارست ليفي-بروفنصال وبروسلار ودو فردان وألفرد بيل وغيرهم من الإسبان. وانصب اهتمامهم على الأندلس ومراكش وفاس وتلمسان وقرطبة وطيطة وإشبيلية وجيان والمرية وبلنسية...

أشكال فاخرة ومشتقة

منذ عقد الثلاثينيات من القرن 20، قام بروفنصال بدراسة الشواهد المتوفرة في الأندلس بناء على الشكل والزخرفة وقسمها إلى أربعة أصناف، وأخذ عنه هذا

توسعت هذه الظاهرة خلال القرون الثلاثة الموالية، وتركز اهتمام أهل المغرب والأندلس على إعداد شواهد قبورهم في حياتهم، وقد جمعنا ست عشرة شاهدة من هذا النوع وكلها شعرية إلا واحدة لأبي الطيب سعيد بن يحيى الحديدي الطليطلي. ويبدو من إلقاء نظرة على محتويات هذه الشواهد أنها لم تعد مجرد وسيلة للحفاظ على هوية صاحب القبر، بل أصبحت تعج بالمشاعر الدينية المتوقدة والهموم الدنيوية. وهذا الحرص على إعداد الشاهدة ليس رغبة فقط في الشاهدة مادامت مألوفة ومضمونة من الأهل حتى دون وصية، لكنه اهتمام بمضمونها الغني بالدلالات.

أختصت الأندلس في منطقة الغرب الإسلامي بثروتها الكبيرة والغنية من الشواهد، فمتاحف إسبانيا والبرتغال تعج بالشواهد الوسيطة، وتضاف إليها يومياً اكتشافات جديدة من هذا النوع. وعكس ذلك، فرصيد المغرب منها محدود جداً، ويقتصر على ما تتوفر عليه بعض المدن التاريخية مثل: فاس ومراكش، وأحياناً نجد شواهد خاصة برجال من العصر الوسيط، لكنها كتبت في عصور متأخرة كما أكد ذلك غاستون دوفردان. وكشف الباحث الفرنسي شارل بروسلار عن ثروة كبيرة من شواهد تلمسان خاصة من القرون 14 و15 و16م. وقد قام باحثون بمجهودات جبارة في مجال

تعج شواهد القبور بالمشاعر الدينية

المتوقدة والهموم الدنيوية

وقد انتشرت في النصف الأول من القرن 6هـ/12م. ودخلت إلى ألبية من إفريقية والمغرب الأوسط، وتصنع من رخام جيد ومزخرف بشكل دقيق ومتين مما يعكس تقدم صناعة الرخام الكبير في المدينة.

التقسيم طوريس بلباستم ووظفه كل الذين يدرسون الشواهد في إسبانيا، وتضمن تقسيمه الأنواع الآتية: أولاً، الشاهدة المربعة أو المستطيلة التي توضع عند رأس الميت، وهو الشكل الأكثر انتشاراً وقدماً. وتوضع



اعتمدت شواهد القبور، في البداية، على الخط الكوفي قبل أن تستعمل الخط الأندلسي أيضا.

البلاغة، لكنها أصبحت عبارة عن سيرة ذاتية للميت، لقد ضعف الاهتمام بالعبارة الدينية والآيات القرآنية، وصار الاهتمام بالمتوفى من حيث ألقابه وأهله وأسلافه وأعماله وسبب موته وتاريخه هي الموضوع الرئيس، لقد صارت سيرة ذاتية بحق. رابعا، الأشعار، التي ينظمها الميت لتوضع في شهادة قبره، تعود إلى الفترة ما بين القرن 5هـ/11م و7هـ/13م، وأهم ما تضمنته «الإقرار بالمصير الذي ينتظر الكل»، و«اعتراف الميت بذنوبه وثقته في رحمة ربه»، و«ترجي الأحياء لزيارته والترحم عليه»، و«وعظ الأحياء وتذكيرهم بزوال متاع الدنيا ومغادرة الأحباب ووحشة القبر»، و«تذكر أيام اللهو والأعمال الجليلة التي قام بها الميت»، و«شكوى الميت من وحدته وغرته».

أليست هذه مشاعر إنسانية متوقدة؟ أليست تعبيرا عن نفسية أهل المغرب والأندلس في الفترات الأخيرة من حياتهم حيث يسيطر هاجس الموت على الإنسان، فيبدأ في استرجاع شريط حياته ويتذكر ما سيرتبه خلفه من مال وأهل ولذة وما سيعيشه من وحشة وغربة في قبره؟ إنها تعبير واضح عن مواقف الميت من الموت. لقد تحولت الشواهد من مجرد الذكرى إلى إحساس وميل أخروي.

العينة التي اعتمدا عليها، وهي الواردة عند ليفي-بروفنصال في كتابه "الكتابات العربية في الأندلس"، وهي فعلا شواهد لا تعطي إلا أشياء قليلة إضافة إلى ما قيل. لكن العودة إلى باقي المصادر خاصة الأدبية وكتب التراجم، تكشف عن نوع آخر من الشواهد تتضمن أشعارا تنقل أحاسيس أصحابها ومواقفهم من الموت وعلاقتهم بالأحياء وأشياء أخرى سنعود إليها فيما بعد، وسنبدا بإيراد بعض الخصائص التي تم إغفالها ومنها: أولا، أن الشواهد كانت، قبل القرن 5هـ/11م، ملخصة جدا، وتندر فيها الآيات القرآنية، وهي تحاول تادية واجبها المتمثل في تخليد ذكر الميت دون زيادة.

ثانيا، ما بين القرنين 5هـ/11م و7هـ/13م، كثرت الشواهد القرآنية والتي تؤكد على التوحيد وإقرار النبوة، وكتابات شعرية تحمل مشاعر الميت، ثم بداية التطويل في الشاهدة، والتي صارت تؤدي أدوارا أخرى، ك«تلقين الشهادة والبحث عن الوساطة (الشفاعة)، ودعم الأحياء، وهذه دون شك مشاعر عميقة، وذكر سبب الوفاة والتظلم من قاتل الميت». ثالثا، في القرنين 8هـ/14م و9هـ/15م، تحولت الشهادة إلى قطعة أدبية نثرية وشعرية مطولة وعلى مستوى عال من

رابعا، مقابريات وهي عبارة عن ألواح من الرخام توضع على جانبي القبر، ظهرت في الأندلس الشرقية منذ القرن 6هـ/12م، وقبلها وجدت في إفريقية والمغرب الأوسط وصقلية. ويذكر ليفي-بروفنصال أنها دخلت المغرب في عصر المرينيين، لكن وجود واحدة في سبتة قد يثبت وجودها في المغرب قبل هذا العصر. وتضاف إلى هذه الأنواع الشاهدة الخزفية التي وصفها باحث إسباني كما يأتي: «إن الشكل الجاري استعماله عبارة عن أجرة مستطيلة في جهة وعلى شكل لوزة في الجانب الآخر، وتلتصق بها أذنان في الجزء العلوي»، وتثبت عند رأس القبر. وهي قديمة، وتعود أقدم إشارة إليها إلى عام 344هـ/954م، ووجدت نماذج منها مصنوعة من الصخر منذ القرن 8هـ/14م. وبالرغم من ندرتها، فقد انتشرت في المدن التي تزدهر بها صناعة الخزف مثل مالقة وغرناطة ومرسية، وهي ملمعة ومزخرفة أحد الوجهين أو هما معا حسب الحالات والمناطق، وتوجد واحدة منها في شالة. ويجدر الإشارة إلى أن هذه الأشكال المذكورة توافق الأشكال الفاخرة، ذلك أن هناك أشكالا مشتقة منها، بعد تشويبهها، تستعمل بالخصوص في الأوساط الشعبية، وهناك استعمال الأحجار دون نحت ولا صقل ولا حتى تقويم وقطع خزف، تكتب فوقها معلومات بسيطة، وتوضع على القبر.

مشاعر إنسانية متوقدة؟

يقول ليفي-بروفنصال، الذي درس عددا كبيرا من الشواهد الأندلسية، إن هذه الشواهد تكاد تتشابه، ويقتصر الاختلاف على بهرجة لغوية لا تضيف شيئا جديدا. وحدد أهم عناصر الشاهدة في «عبارة البداية العادية»، و«آية قرآنية تعبر عن فناء الدنيا، وهي في الغالب الآية 5 من سورة فاطر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾»، و«تعيين الميت بالبده بعبارة: هذا قبر...»، و«عبارة التبجيل (رحمه الله)»، و«شهادة التوحيد التي تستعمل للتعبير عنها الآية 33 من سورة التوبة ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾»، و«تاريخ الوفاة»، و«ترحم على الميت»، أخيرا.

ويضيف ليفي-بروفنصال أن هذا الشكل سائد أيضا في مصر، وهي لا تهتم بالجانب الدينوي للميت باستثناء ذكر أصله وألقابه وفي أحيان نادرة تاريخ ولادته وعمره عند الوفاة. ويزيد طوريس بلباس أنها خالية من حرارة المشاعر الإنسانية الموجودة في الشواهد الرومانية. ويوافقهما أغلب المؤرخين على هذا الكلام بكل بساطة، لأننا نعرف

أبو عامر يرثي نفسه

● يا صاحبي قم فقد أطلنا // أنحن طول المدى هجود؟
فقال لي: لن تقوم منها // ما دام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة لهونا // في ظلها والزمان عبيد؟
وكم سرور همس علينا // سحابة ثرة تجود؟
كل كان لم يكن تقضى // وشؤمه حاضر عتيد
حصله كاتب حفيظ // وضمه صادق شهيد
يا ويلنا إن تنكبتنا // رحمة من بطشه شديد
يا رب عفوفا فانت مولى // قصر في أمرك العبيد ■



ابن شهيد أبو عامر (القرن 11هـ/11م) في قرطبة.

تخلد الشواهد تاريخ البلد وجزءا من ذاكرة أهله ونظرتهم للموت.

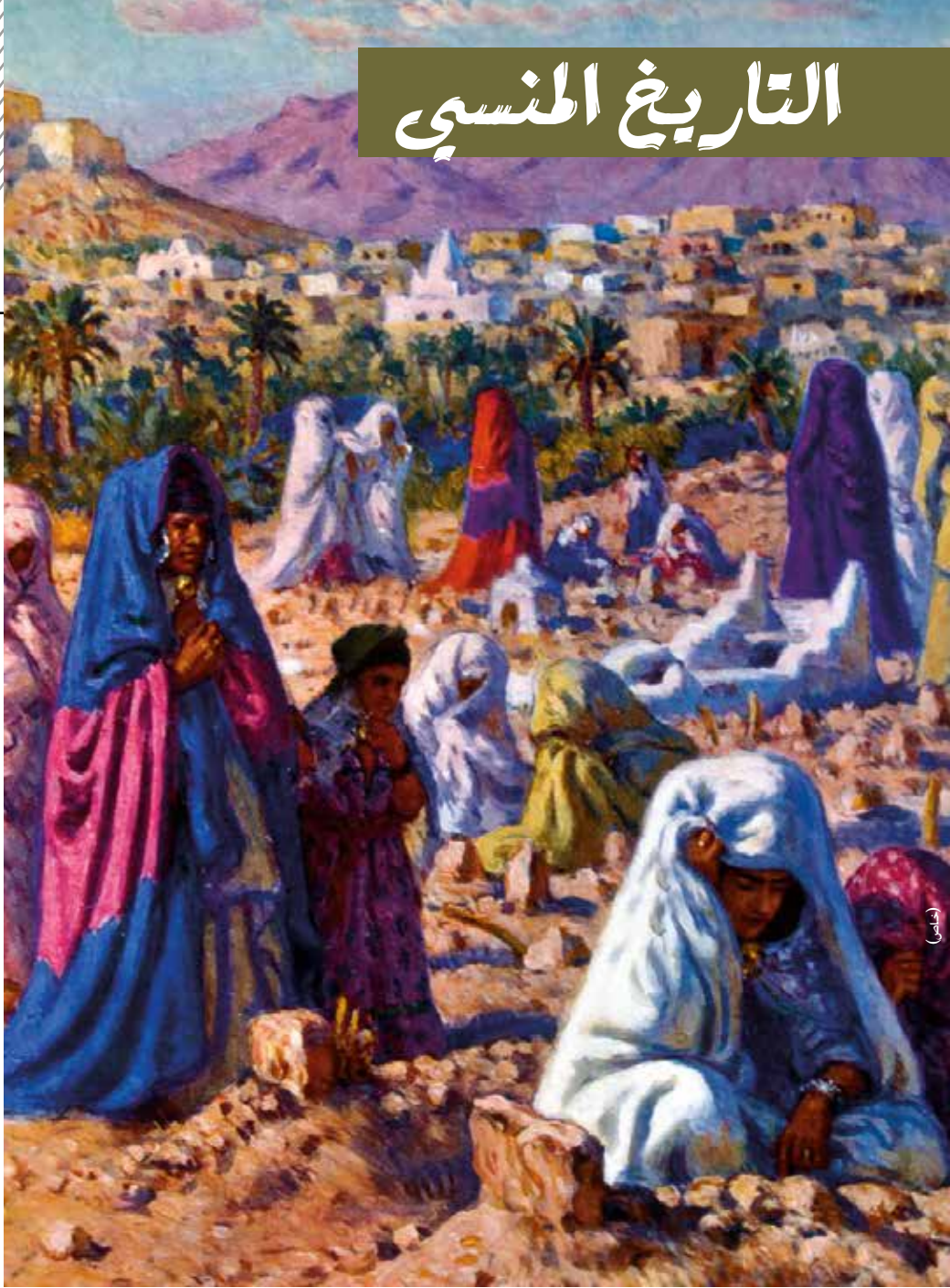
الشواهد المرابطة تظهر براعة الصانع ألمريي العالية، وتوحي، بالرغم من أن المصادر لا تذكر ذلك، بوجود ورشات متخصصة في صناعة الشواهد والتوابيت الجنائزية، أو على الأقل وجود صناعات يصنعونها عند الحاجة.

وأياضا، توفر الشواهد معطيات مهمة عن الديمغرافيا التاريخية بتوفير تواريخ وفاة أصحابها وأعمارهم، وأحيانا سبب وفياتهم وارتباطاتهم العائلية.

وفضلا عن ذلك كله، يجد الباحث في الشواهد، كما يظهر عرض مضامينها، مادة غنية عن مشاعر الموتى وعلاقتهم بالأحياء، ونظرة المجتمع إلى الموت والآخرة والمصير، وإجمالا كل ما يتعلق بالموت.

يمكن القول، في الأخير، إن الشواهد تمثل ميزة أساسية لمقابر المسلمين عامة والأندلسيون منهم والمغاربة خاصة، وهي تضفي عليها جمالا ورونقا يخفف من آلام الزائر، وتعكس كذلك المستوى الاجتماعي للمدفونين ومدى تطور صناعة البلد، كما تخلد تاريخ البلد وجزءا من ذاكرة أهله ونظرتهم للموت والآخرة والمصير. وكل هذا يجعلها مصدرا مهما لتاريخ المغرب والأندلس ومدنه. ■

* أستاذ التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال



مراجع

► محمد حقن، الموقف من الموت، مطبعة مانيبال، بني ملال، 2007.

► محمد حقن، "مصادر لم تستغل: شواهد القبور"، مجلة كلية الآداب ببني ملال، عدد 9، 2008.

► Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, éd. Larose, Paris, 1931.

► Brosselet, (Chr), «Les inscriptions arabes de Tlemcen», Revue Africaine, N°16, Avril 1859, pp. (241-268).

► Torres Balbas, «Los cementerios hispano-musulmanes», Al-Andalus, vol. 22, fasc. 1, 1957.

كابن الفرضي وابن بشكوال. ويمكن توظيفها في التأريخ للأفكار وظهورها وتطورها. كما تضطلع الشاهدة بدور اجتماعي بضبط الأنساب وتحديد تسلسل أبناء البيت الواحد، والمستوى الاجتماعي لأصحابها حسب مستوى فخامتها ونوعية خطها. كما تبين الشاهدة مستوى التطور الصناعي الذي وصل إليه العصر، فشواهد ألمرية أو

••• بين الخطين، الكوفي والأندلسي

اعتمدت شواهد القبور في كتابتها على الخط الكوفي المعقد أو البسيط حسب الحالات ومكانة الميت. وشهد العصر الموحدى ميلا نحو استخدام الخط الكوفي البسيط، بل أكثر من ذلك بدأ استعمال الخط الأندلسي البسيط والمقروء كما تظهر شاهدة من بطليوس مات صاحبها عام 545هـ/1150م، وهو الشيء الذي لوحظ أيضا في لوحات المنشآت العمرانية. وفي عصر بني نصر عمم استعماله بالأندلس، وفي المغرب في ظل المرينيين.

وتساعد الشواهد على تحديد أحداث تاريخية وتحقيقها بناء على تواريخ موت أصحابها، وتاريخ الأسر السياسي وتسلسل حكامها وفترات حكمهم. الخدمة نفسها تقدمها للباحثين في العلوم خاصة الحديث الذي يفرض تواتر الرواية وعدالة الناقلين. وقد سبق للقديماء أن وظفوها في الجرح والتعديل

ابن خفاجة يكتب "شاهد" قبره

● خليلي هل من وقفة لتألم // على جدثي أو نظرة لترحم خليلي هل بعد الردي من ثنية // وهل بعد بطن الأرض دار مخيم وإنما حيينا أو ردينا لإخوة // فمن مر بي من مسلم فليسلم وماذا عليه أن يقول محييا // ألا عم صباحا أو يقول ألا أسلم وفاء لأشلاء كرم من على البلى // فعاج عليها من رفات وأعظم يردد طورا آهة الحزن عندها // ويذوق طورا دمة المترحم ■



ابن خفاجة (القرن 6هـ/21م).